المكتبة القبطية على الانترنت

زيارة الموقع

من تفسير وتأملات
الآباء الأولين

حبقوق

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس باسبورتنج

حَبقوق

القمص تادرس يعقوب ملطي
كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس باسبورتنج

الكتاب : سفر حبقوق .
المؤلف : القمص تادرس يعقوب ملطى .
الناشر : كنيسة مارجرجس باسبورتنج .
المطبعة : الأنبا رويس بالعباسية .
الطبعة : الأولى سبتمبر ١٩٨٣ .
حقوق الطبع مباحة لجميع كنائسنا بمصر والخارج .

قداسة البابا شنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

محتويات الكتاب

صفحة

فهرست ٥
حبقوق ٦
الأصحاح الأول :
سؤال حول تأديب الله شعبه ١١
الأصحاح الثانى :
معاقبة الكلدانيين ٢٥
الأصحاح الثالث :
مزمور حمد لله ٣٥
الملاحظات ٤٥

١ ـ أصل الكلمة « حبقوق » غير معروف ، يرى البعض أنها تعنى « المحتضن » أو « المعانق » بينما يربطها Friedrich و Delitxsch, بالكلمة الأشورية « حبقوق » وهو نبات حديقة(١) .

٢ ـ واضح من مزموره الوارد فى الأصحاح الثالث ومن توجيهاته لرئيس المغنين (٣: ١٩)، أنه كان من سبط لاوى كأحد المغنين فى الهيكل أى فى فرقة التسبيح ، إن لم يكن صاحب دور قيادى بالفرقة(٢) .

تاريخ السفر وواضعه :

لا يحمل السفر أى تاريخ ، لكن من الواضح أنه كتب فى أيام الملك يوياقيم بيهوذا (٦٠٩ ـ ٥٩٨)، وإن كان من الصعب تحديد الزمن بدقة .

ما ورد بالأصحاح الأول (ع ٥ ـ ٦) يخص ما قبل انتصارات الكلدانيين الأمر الذى جعل بعض النقاد يرون أن السفر قد سجل قبل انتصارهم على نينوى عاصمة أشور وسقوطها تحت يدهم ، فقد قام الكلدانيون بثورات ضد أشور تجلت بسقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م. الأمر الذى رفع من دورهم فى العالم فى ذلك الحين ، وصار لهم مركزاً قيادياً ، تزايد بالأكثر بغلبتهم على نخو ملك مصر فى موقعه كركميش عام ٦٠٥ ق.م. (٢أى ٣٥: ٢٠، أر ٤٦: ٢) . ويعتقد غالبية النقاد أن النبوة ترجع إلى زمن هذه المعركة .

واضح أن هذا السفر كتب فى عصر الكلدانيين (٣)، أولاً لأن الهيكل كان لا يزال قائماً (٢: ٢٠) والخدمة الموسيقية تمارس فيه (٣: ١٩)، ثانياً لأنه يعلن أن الكلدانيين يصبحون قوة مرهبة بين الشعوب أثناء ذلك الجيل (١: ٥، ٦)، وأنهم قد بدأوا فعلاً فى قتل الأمم (١: ٦، ١٧) .

يرى البعض أن حبقوق النبي كان بعد ناحوم بفترة قصيرة (٤) ، وأنه كان معاصراً لأرميا ، وإن كانت مدة خدمة الأخير النبوية أكثر طولاً وفياضة (٥) .

الكلدانيون (٦) :

كان الكلدانيون يسكنون كلديا Chaldea جنوب بابل ، وهو الجنس الغالب فى بابل منذ ٧٢١ - ٥٣٩ ق.م. ، شغلوا المناصب الرئيسية القيادية ، كما مارسوا العمل الكهنوتى فى العاصمة حتى أصبح إسم « كلدانى » يرادف « كاهن بعل مردوخ » كما ذكر المؤرخ هيرودت (٧) . كان الشعب يعتقدون فيهم كأصحاب حكمة وفهم ، كسحرة ومنجمين يعرفون الغيب (دا ١ : ٤ ، ٢ : ٢ ، ٤) .

ســـماته :

١ - فى دراستنا لسفر يونان رأينا الوحى الإلهى قد أفرد السفر لإبراز اهتمام الله بمدينة نينوى عاصمة أشور الوثنية ، معلناً محبته لكل البشرية واشتياقه لخلاص العالم كله ، وفى دراستنا لسفر عوبديا لاحظنا كيف تركزت النبوة ضد أدوم بكونه يمثل الإنسان الدموى المحب للقتال والشخص الترابى محب الأرضيات (أدوم تعنى دموى أو أرضى) ، أما سفر حبقوق فيكشف عن الكلدانيين الذين يسبون شعب الله ويذلونه لأجل تأديبه . دخل حبقوق فى حوار مفتوح وصريح مع الله ، يسأله عن سر سماحه لإذلال هذه الأمة الشريرة الوثنية لشعبه وعدم دفاعه عنه . إنه سؤال الأجيال كلها : لماذا يسمح الله لأولاده بالضيقات بواسطة الأشرار؟ إذ كان النبي يسأل بقلب منفتح فالله يجيب فى صراحة ووضوح .

٢ - يكشف لنا هذا السفر عن مفهوم « كلمة الله » إنها ليست حديثاً منفرداً من الله نحو الإنسان ، لكنها حوار حب مشترك بين الله والإنسان . كلمة الله هى مونولوج حتى غير منقطع ، فيه يتكلم الله والإنسان يسمع ، والإنسان يتكلم والله بالحب ينصت ... كلمة الله هى علاقة الحب الحقيق بين الله والإنسان ...

٣ - هذا السفر بأصحاحاته الثلاثة يكشف عن سمات النبي أو خادم الرب ، وهى :

(أ) القلب المفتوح أمام الله ، يتعامل معه على مستوى الحوار لا على مستوى الرسميات والشكليات ، وإنما على مستوى الإبن الذى يلتقى مع أبيه فى دالة البنوة التى تسمو فوق الرسميات ...

(ب) القلب المفتوح من نحو المخدومين ، فإن كان حبقوق قد تألم بسبب الظلم الذى ساد بين شعب الله ، لكن حين سقط الشعب تحت التأديب بواسطة الكلدانيين لم يحتمل النبى أن يرى شعبه يئن و يتوجع ، وانطلق يتشفع فى شعبه ، أو بالحرى فى شعب الله .

(ج) القلب المملوء فرحاً وتسبيحاً (ص ٣) ، لو أن حبقوق ركز كل نظره على الفساد الذى دبّ فى الشعب وعلى تأديبات الله لهم لسقط فى اليأس خلال المنظور المؤلم ، لكنه وسط الأوجاع كان يرى يد الله الخفية تعمل للخلاص ، فقدم تسحة حمد لله تنعش نفسه بالفرح ، فلا تسمح لليأس أو القنوط أن يتسلل إلى قلبه . الخادم محتاج إلى النظرة المملوءة رجاءً وسط آلام الخدمة وأتعابها .

أظنها سمات ثلاث هامة فى حياة الخادم الحقيق ، متكاملة ومتلازمة : الحديث مع الله بقلب مفتوح ، وخدمة الناس بحب داخلى منفتح مهما كانت تصرفاتهم ، والفرح الروحى الداخلى المشبع للنفس .

٤ ـ هذا السفر يمس حياة كل مؤمن ، فى الأصحاح الأول إذ يئن النبى بسبب الظلم الذى يسود وسط الشعب إنما يشير إلى الفساد الداخلى للنفس ، والأصحاح الثانى إذ يئن بسبب متاعب الأمة الكلدانية الغريبة يشير إلى الحروب الروحية الخارجية ، والأصحاح الثالث حيث مزمور الفرح والتسبيح ... كان السفر ينطلق بالمؤمن إلى ما فوق المتاعب الداخلية والحروب الروحية الخارجية لتحيا بروح الفرح والتسبيح لله . حقاً إنه يئن و يتوجع بسبب الضيق الداخلى أو الخارجى لكنه مع الضيق توجد تعزيات الروح القدس المبهجة للنفس .

٥ ـ عرض لنا هذا السفر مشكلة الشر وانتهت بنصرة العدل . فالأشرار يعبرون أما الأبرار فيحيون إن كانوا مؤمنين (٢ : ٤) . وقد استخدم الرسول بولس « قلب سفر حبقوق » هذا فى تعليمه عن الإيمان (رو ١ : ١٧ ، غلا ٣ : ١١ ، عب ١٠ : ٣٨ (*)) .

٦ ـ خلال هذا السفر نتلمس شخصية حبقوق النبي كشخص عميق في تفكيره، له خبرته الأدبية المعتبرة. كما يقدمه لنا «كمصارع مع الله» كقول القديس چيروم (٩).

وحـدة السـفر :

هاجم بعض النقاد وحدة السفر متطلعين إلى السفر كأجزاء منفصلة، كل جزء كتب في وقت يختلف عن الجزء الآخر، أو عصر مختلف، وقد لخص رأى هؤلاء النقاد والرد عليهم (١٠) :

١ ـ لما كان ما جاء في حب ١ : ٥ ـ ٦ ينطبق على تاريخ سابق لقيام الكلدانيين، بينما ما ورد في ١: ١٣ ـ ١٦، ٢: ٨(أ)، ١٠، ١٧ يتحدث عن انتصاراتهم كأحداث ماضية لذا فإن Gieseberecht ، Wellhausen رأيا أن حب ١: ٥ ـ ١١ يمثل نبوة مستقلة أقدم من بقية الأصحاح الأول والأصحاح الثانى.

ويعتقد Stade و Kuenen أن ما جاء في حب ٢ : ٩ ـ ١٠ لا ينطبق على الكلدانيين وأن كاتب هذا الجزء جاء في عصر متأخر.

ويرد Raven بأنه يُفترض أن كاتب السفر كله واحد، الحامل السفر إسمه مالم يوجد دليل قوى على عكس ذلك. وهنا لا نجد مثل ذلك الدليل. فليس المطلوب هو البرهان على أصالة كل جزء من السفر، إنما على المعترض أن يقدم براهينه.

هذا ومن ناحية أخرى فإننا لا نعرف بطريقة إيجابية زمن حبقوق النبي بدقة، وليس لدينا تفاصيل عن الأحداث التاريخية لأيامه، لهذا فإن مجرد افتراض بأن بعض أجزاء السفر لا تعكس الظروف المحيطة بالنبي إفتراض هزيل.

٢ ـ تطلع بعض النقاد إلى أن ما ورد في الأصحاح الثالث أنه مقتبس من تجميع ليتورجى وليس من عمل حبقوق النبي، ودليلهم على ذلك أن ما ورد لا يناسب الظروف المحيطة به. ويرد Raven على ذلك بأن الأصحاح حمل عنواناً «صلاة حبقوق» فما ورد ليس إلا صلاة ولا يلتزم أن تعكس الأحداث المعاصرة كبقية السفر.

ومع هذا ففى حديثنا عن سمات السفر رأينا السفر يمثل وحدة واحدة متكاملة فى الفكر الروحى الإيمانى .

أقســـامه :

١ ـ سؤال حول تأديب الله شعبه ص ١
٢ ـ سؤال حول معاقبة الكلدانيين ص ٢
٣ ـ مزمور حمد لله ص ٣

+ + +

فى صراحة وبدالة يسأل حبقوق النبى الله عن الظلم الذى ساد وسط شعبه، فقد أحاط الأشرار بالبار وأساؤا إليه بظلمهم حتى جدت الشريعة وصدرت الأحكام جائرة. والعجيب أن الأشرار يعيشون فى راحة وبصحة بينما الأبرار فى ضيقة وحرمان... وكأن الله قد ترك الأرض (حز ٨: ١٢). وجاءت الإجابة لحبقوق النبى واضحة وصريحة أن الله وإن تمهل إنما ليعطى الأشرار فرصة لكنه يرسل لهم أداة تأديب قاسية إن لم يرجعوا عن شرهم، هذه الأداة قد تكون أمة وثنية تسبيهم وتذلهم كالكلدانيين:

١ ـ تساؤل حبقوق النبى	١ ـ ٤.
٢ ـ التأديب بالكلدانيين	٥ ـ ١١.
٣ ـ حبقوق يرق لشعبه	١٢ ـ ١٧.

+ + +

١ ـ تساؤل حبقوق النبى:

فى جسارة يصرخ النبى إلى الله، قائلاً أنه يدعوه وهو لا يسمع، يصرخ إليه مرة ومرات من أجل الظلم الذى ساد الشعب وهو لا يخلص المظلومين، فتحول شعب الله إلى بؤرة ظلم وجور واغتصاب وخصام، ليس من يريد أن يسمع للشريعة ولا من يقبل حكم عدل، إنما حوّط الأشرار بالصديق ليكتموا أنفاسه ويخرجوا الحكم حسب هواهم.

« حتى متى يارب أدعو وأنت لا تسمع ؟!
أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص ؟!
لِمَ تريني إثماً وتبصر جوراً ، وقدامي أغتصاب وظلم ،
وتحدث خصام وترفع المخاصمة نفسها ؟!
لذلك جمدت الشريعة ، لا يخرج الحكم البتة ،
لأن الشرير يحيط بالصديق ، فلذلك يخرج الحكم معوجاً » ع ٢ - ٤

فى عتاب وذى يقول : « حتى متى يارب أدعو وأنت لا تسمع ؟! » ، إذ لم يكف النبى عن دعوة الرب والصراخ إليه إن لم يكن باللسان فبالقلب والدموع بسبب مرارة ما بلغ إليه الشعب بسبب ظلم الأشرار، قارعاً أبواب مراحم الله بلسانه وقلبه ودموعه ، مازجاً دموعه بدموع المظلومين و وتنهداته بتنهداتهم !

فى كل جيل يقف أولاد الله مندهشين بسبب ما يبدو على الأشرار الظالمين من نجاح ، فيقولون مع داود النبى « قد رأيت الشرير عاتياً وارقاً مثل شجرة شارقة ناضرة ، عبر فإذا هو ليس بموجود ، والتمسته فلم يوجد » (مز ٣٧ : ٣٥ ، ٣٦) . لقد بلغت مرارة نفس أرميا بسبب ما رآه فى شعبه من فساد وظلم أنه قال « يا ليت لى فى البرية مبيت مسافرين فأترك شعبى وانطلق من عندهم » (أر ٩ : ٢) ، وإن كان أرميا فى حبه لشعبه لم يتركهم بالرغم مما عاناه من ضيق على جميع المستويات .

نعود لكلمات حبقوق النبى لنجد فيها كشفاً عن شخصه ، فهو رجل الله الذى لا يطيق الظلم ، فيتحدث مع إلهه فى حوار مفتوح بلا كلفة ولا رسميات أو مجاملات أو شكليات ، إنما يتحدث من واقع أنات قلبه التى لا تنقطع ودموعه التى لا تجف . هذه هى صورة إنسان الله - كاهناً أو من الشعب - لا تنقطع صلواته ليلاً ونهاراً بالشفتين كما بالقلب والعمل ... يصرخ لكى ينزع الله الفساد والظلم عن البشرية الساقطة ، فيقيم كل نفس مقدسة له . لذا يسأل ويطلب ويصرخ بلا انقطاع وفى غير يأس ، واثقاً أن الله قادر أن يعمل ! هذا وقد عرف النبى سرّ شرهم أنه يكمن فى الإنحراف عن الوصية الإلهية أو الشريعة ، إذ يقول « جمدت الشريعة ،

لا يخرج الحكم البتة، لأن الشرير يحيط بالصديق فيخرج الحكم معوجاً» (ع٤). فالشريعة التى تلهب القلب ناراً وتهبه حياة تصير جامدة بلا فاعلية إن أحاط الأشرار بالصديق وأفسدوا فكره من جهة الوصية.

إن كان رجال الله فى كل العصور صرخوا إلى الرب من أجل ما يرونه فى الأشرار الظالمين كعابثين فى الأرض بينما يعيش الأبرار فى ضيق ومرارة، لكنهم إذ قدموا أفكارهم وقلوبهم منفتحة أمام الرب ازدادوا فى عيني الله كرامة، أما من ينظر هذا الحال ويستسلم لأفكار الشك من جهة رعاية الله وتدبيره للعالم فتُصاب نفسه بمرض. وكما يقول **القديس أغسطينوس** أن الكتاب المقدس يقدم المزمور السابع والثلاثين كعلاج مناسب لمن أُصيبت نفسه بهذا المرض(١٠). فى اختصار يؤكد هذا المزمور أن الأشرار يعيشون كالعشب على هامش السطح، يظهرون ناجحين فى شتاء هذا العالم، لكن الصيف قادم فيجفون ويحترقون إذ لا جذور لهم فى أعماق التربة.

٢ - التأديب بالكلدانيين :

جاءت إجابة الرب على تساؤل النبى هكذا : « **أنظروا بين الأمم وابصروا وتحيروا حيرة، لأنى عامل عملاً فى أيامكم لا تصدقون به إن أُخبر به : فهأنذا مقيم الكلدانيين ...** » (ع٥، ٦).

حقاً إن الله يصمت زماناً لا تجاهلاً لما يحدث ولا لعدم اهتمام من جانبه، إنما **ليعطى** فرصة للرجوع دون تأديب من جانبه، فإن لم يرجع الإنسان عن شره يقوم **الرب** نفسه بالتأديب، مستخدماً كل وسيله للبنيان.

أ - إن الله عامل عملاً فى أيامهم لا يصدقون به إن أُخبر به ... فهو يطيل أناته، لكنه متى أدّب يقدم درساً نافعاً حتى وإن كان قاسياً. وكما جاء فى سفر التثنية: « ويقول جميع الأمم: لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض؟ لماذا حمو هذا الغضب العظيم؟ فيقولون: لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم» (تث ٢٩: ٢٤، ٢٥). وكما يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم** : «لم يكن الله يقصد أن يعاقب بقدر ما كان يقصد إصلاحهم مستقبلاً... الله صالح ومحب، ليس فقط عندما يهب عطايا بل وعندما يؤدبنا أيضاً، فإنه حتى تأديباته وعقوباته هى من قبيل جوده، ومظهر عظيم من مظاهر عونه لنا(١١)». كما يقول إن كان الله قد طرد آدم من الفردوس، إنما

لكى بطرده يرده إليه... وهكذا إن كان الله سمح للشعب بالأسر إنما ليبعث فيهم الشوق إلى الحرية الداخلية والحنين لا إلى الرجوع إلى أورشليم الأرضية فحسب وإنما العليا أيضاً.

ب - يقول : « هأنذا مقيم الكلدانيين » ، فهو سيد التاريخ وموجهه ، يستخدم حتى الأشرار لتحقيق خطته الإلهية الخيّرة للبشرية. إن الكلدانيون بجبهم للإغتصاب سبوا الشعب، لكن بسماح إلهى لأجل توبة الشعب، وكأن الله أقام الكلدانيين خصيصاً لهذا العمل.

ج - يشير الكلدانيون إلى عدو الخير الذى تسلم له أنفسنا بأنفسنا عبيداً بسبب خطايانا وبحميا الرب منه مرة ومرات حتى لا نسقط تحت مذلته، لكننا إذ نصر على الخضوع له يتركنا الرب تحت يديه لتأديبنا. بهذا الروح يطلب القديس بولس الرسول من أهل كورنثوس أن يتركوا الشاب الذى سقط مع إمرأة أبيه مسلماً للشيطان أن يُسلم للتأديب، قائلاً: «باسم ربنا يسوع المسيح إذ أنتم وروحى مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح أن يُسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع» (١كو ٥: ٤).

وقد جاءت سمات أمة الكلدانيين هنا مطابقة لسمات عدو الخير وعمله ضدنا :

أولاً : « أمة مرة » ع ٦ :

عدو الخير ليس كائناً فرداً لكنه أمة ، أى مملكة يتزعمها إبليس كملك له رؤساء وسلاطين وقوات (أف ٦: ١٢)، له ملائكته وجنوده (مت ٢٥: ٤١)، وهى مملكة مرة تقدم من عندياتها ما لها أى المرارة، تُسر وتفرح بمصائب الآخرين وهلاكهم، غايتها الهدم لا البنيان.

ثانياً : فاحـة :

كان الكلدانيون موضوع مرارة كل الأمم المحيطة بهم ، لا يعرفون الملاطفة ولا عهود السلام بل الهجوم والمقاتلة. بهذا كانوا أمة فاحة تنقض على الآخرين لتأسرهم وتذهلهم. هكذا إبليس بكل ملائكته يقتحمون أبواب الإنسان لاستعباده وإذلاله، ليعمل حسابهم. إنهم يتربصون له ليقتحموا بسرعة اللحظات التى فيها تنفتح أبواب

الحواس أو العواطف، فيهجموا إلى الداخل ليملئوا مملكتهم فيها. لهذا يصرخ المرتل: «ضع يارب حافظاً لفمى وباباً حصيناً لشفتى» حتى لا يقتحم العدو حياته.

ثالثاً: سالكة فى رحاب الأرض:

كانت أمة الكلدانيين تجول فى كل موضع لتستولى على شعوب وممالك بلا عائق، تجول كما فى الأرض كلها لتلتهم الجميع، لكنها لا تقدر أن ترتفع إلى فوق لتذل من هم قد ارتفعوا عن الأرض. هكذا يرى عدو الخير أن الأرض كلها قد انفتحت قدامه، يسلك فى رحابها، حتى دعى برئيس هذا العالم أو أركونه.

حدود عدو الخير هى «رحاب الأرض»، فهو كما يقول **القديس چيروم** كالحية يزحف على الأرض برأسه وذيله وبقية جسمه، ملاصق للأرض تماماً(١٢). إنه يلتهم التراب، فمن كان منا أرضاً أو ترابياً صار مأكلاً له، أما من ارتفع بقلبه إلى السماء ليمارس الحياة العلوية دون أن تسحبه محبة الأرضيات فلا يقدر العدو أن يقتنصه!

رابعاً: تملك مساكن ليست لها:

كان الكلدانيون يعتدون على أموال الغير ونفوسهم، حاسبين أن كل شىء هو لهم وحدهم، من حقهم أن يغتصبوا ويملكوا بلا عائق، ماداموا أصحاب القوة والسلطان. هكذا يسطو عدو الخير على البشرية التى ليست من عمل يديه ولا هى مملكه، بل هى ملك ذاك الذى «كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان» يو ١: ٣. طبيعة عدو الخير السطو على ما لله ليقيم مسكنه ومملكته فى القلب الذى أوجده له ليكون هيكلاً مقدساً له.

لقد عبّر أرميا النبى عن هذه السمة الشيطانية بالمثل القائل: «حجلة تحتضن مالم تبض، محصل الغنى بغير حق، فى نصف أيامه يتركه، وفى آخرته يكون أحمق» أر ١٧: ١١. ويفسر **العلامة أوريجانوس** هذا المثل قائلاً أن الحجلة وقد عرفت كطائر ماكر تدور حول قدمى الصياد لينشغل بها حتى تطمئن أن صغارها قد هربوا وعندئذ تطير فلا يأخذ الصياد الصغار ولا أمهم، بهذا تشبه الشيطان الذى يشغل ذهن الإنسان بالأرضيات فلا ينال الأرضيات ولا السمويات. هذه الحجلة غالباً ما تحتضن بيضاً ليس لها، وعندما يفرخ البيض يبقى الصغار معها حتى تأتى الأم

الأصلية فتعطى صوتاً يفهمه الصغار فيتركون الحجلة الخادعة ويرجعون إلى أمهم. إنها صورة حية لما حدث إذ احتضن إبليس البشرية كصغار له وأغواها بخداعاته، لكن فى نصف أيامه جاء السيد المسيح يعطى صوت محبته معلناً إياه عملياً على الصليب، مجتذباً البشرية المخدوعة لترجع إلى خالقها الحقيق، فخسر إبليس ما اقتناه بدون حق، أما فى آخر الدهور فيكون أحقاً إذ يهلك تماماً فى نيران جهنم (١٣).

إن كان إبليس كالكلدانيين ملكوا مساكن ليست لهم أو كالحجلة التى احتضنت مالم تبض فإنه يخسر كل شىء حتى نفسه خلال الصليب الذى ردّ المؤمنين إلى خالقهم ومخلصهم والذى أدان إبليس وكل جنوده وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب، إذ جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه» كو٢ : ١٥.

خامساً : هائلة ومخوفة :

عدو الخير مرهب ومخيف للإنسان المجرد، أما المختفى فى المسيح يسوع الذى «خرج غالباً ولكى يغلب» رؤ ٦ : ٢، فلا يستطيع أن يرهبه بل يرتعب هو منه. لنختفِ فى ذاك الذى يقدر وحده «أن يدخل بيت القوى وينهب أمتعته» مت ١٢ : ١٩. إن كان العدو قوياً فقد ربطه السيد بالصليب وسحب منه غنائمه التى هى البشرية، وصار الرب بنفسه قائد المعركة الروحية. يقول **الأب ثيوفان الناسك :** «إعلم أن أعداءنا وكل مكائدهم فى قبضة ربنا يسوع المسيح، قائدنا الإلهى، الذى تحارب أنت من أجل مجده وعظمته. وإذ يقودك فى المعركة بذاته، فهو بالتأكيد لا يسمح باستخدام العنف ضدك، ولا يشاء أن تكون مغلوباً من العدو، مالم تمل أنت إلى جانبهم بإرادتك» (١٤).

سادساً : من قبل نفسها يخرج حكمها وجلالها :

أمة الكلدانيين مستبدة برأيها، لا تخضع لقانون سوى هواها، وعدو الخير فى تعامله معنا لا يحكمه سوى هواه، فالنقاش معه غير مجدٍ. لهذا ينصحنا آباء الكنيسة ألا نعطى أذناً لكلماته ولا ندخل معه فى حوار، لأنه حواره مملوء خداعاً وغير بنّاء.

سابعاً : خيلها أسرع من النمور :

فى هذا الأصحاح يقدم لنا الوحى الإلهى صورة حيّة واقعية لبشاعة العدو الحقيق ، إبليس ، الذى يبذل كل طاقاته ليستعبدنا :

فمن جهة سرعة حركته فى الإفتراس أسرع من النمور ،

وفى دهائه يعمل فى الظلمة أعنف من ذئاب المساء ،

دائرة عمله بلا حدود ، منتشر فى كل موضع ينصب شباكه ،

إمكانياته جبارة ، قادر أن يأتى من بعيد لينقض على فريسته من حيث لا نتوقع ،

قدرته على الإغتصاب والهرب كالنسر الذى يخطف الفريسة ويطير بها ،

دستوره هو شريعة الظلم بلا رحمة ولا تفاهم ،

فى طبيعته حيوانى مفترس وجهه إلى قدام كالوحوش ،

مسبيوه كالرمل بلا عدد ،

يذل الملك ويهزأ بالرؤساء ، قتلاه أقوياء ،

يحطم الحصون ويكومها كتراب يستخدمه لحساب مملكته ،

أثيم بطبيعته .

والآن نتحدث عن هذه السمات فى شىء من التفصيل ، فمن جهة سرعة حركته فى الإفتراس كما قلنا أسرع من النمور. فهو سريع الحركة ، مملوء مكراً ودهاءً ، يقتنص كل فرصة لاصطياد النفس ، مترقباً أقل إهمال أو تراخى لسحب النفس إلى شبكته . والمؤمنون بدورهم يقظون ينتهزون كل فرصة للنمو والتمتع بالإكليل... الحياة الروحية فى حقيقتها إنتهاز فرص ، العدو ينتهز الفرصة والمؤمن ينتهز الفرصة . إنه صراع روحى مستمر لبلوغ كل منها غايته . يمكننا تلمس ذلك من كلمات **القديس أغناطيوس الأنطاكى** الذى أسرع بالكتابة إلى أهل رومية ليوقف خطتهم التى وضعوها لإنقاذه من الإستشهاد ، إذ حسب ذلك محبة لكن فى غير أوانها... حسب استشهاده فرصة قد لا تتكرر فلماذا يحرمونه منها ؟! إنه يقول : « أطلب إليكم ألا تظهروا لى عطفاً فى غير أوانه ، بل اسمحوا لى أن أكون طعاماً للوحوش الضارية ، التى بواسطتها يوهب لى البلوغ إلى الله . إننى خبز الله ، أتركونى أطحن بأنياب الوحوش لتصير قبراً لى ، ولا تتركوا شيئاً من جسدى ، حتى إذا ما مت

لا أتعب أحداً... توسلوا إلى المسيح من أجلي حتى أعد بهذه الطريقة لأكون ذبيحة لله... ليتني أتمتع بالوحوش الضارية التي أُعدت لي، فإنني أصلي أن يكون لها شغفاً أكثر لتنقض عليّ، وإنني سأحرضها لتفترسني سريعاً» (١٥).

ثامناً: أحد من ذئاب المساء:

إن كان إبليس يتحرك في النهار كالنمر في خفة شديدة مع دهاء، ففي المساء لا يتوقف إنما يخرج كذئاب المساء ليخطف. إنه لا يعرف الراحة نهاراً وليلاً، لذا يليق بنا المثابرة بلا توقف... حتى في لحظات النوم تقول نفوسنا: «أنا نائمة وقلبي مستيقظ» نش ٥: ٢.

يرى **الأب ثيوفان الناسك** أن المؤمن ليس فقط يثابر متحفظاً من ضربات الشيطان، إنما بقوة الروح يثير الحرب ضده ليغتصب منه كل موقع سبق فاحتله داخل القلب، إذ يقول: «إن أردت يا أخي أن تنال انتصاراً سريعاً وميسوراً على أعدائك، عليك أن تشن حرباً بلا توقف، وبشجاعة ضد كل أوجاعك... لذا يجب أن تكون محاربتنا الروحية مستمرة بلا توقف، ومدعمة باليقظة وشجاعة النفس، وهذه يمكن الوصول إليها بسهولة إن طلبتها كهبة من الله. فاستمر إذن في المعركة بلا تردد» (١٦).

إنه كذئاب المساء يعمل في الظلمة ليخفي حيله ومكائده (أف ٦: ١١). وكما يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**: «يحاربنا هذا العدو لا بطريق مكشوف وواضح وإنما بالمكايد... فلا يقترح علينا الخطايا بألوانها الحقيقية... وإنما يقدمها بثوب آخر ليجعل حديثه مقبولاً ومتنكراً» (١٧).

تاسعاً: فرسانها ينتشرون، يأتون من بعيد:

ينصب عدو الخير فخاخه في كل موضع، باذلاً كل طاقاته لاصطياد النفوس حتى وإن كان الإنسان في موضع مقدس. لقد تجرأ فحارب السيد المسيح على جناح الهيكل، وقد سمح له الرب بذلك ليحذرنا، مؤكداً لنا أن العدو يحارب في كل موضع، في البيت كما في العمل، في الكنيسة كما في الشارع، في المخدع حيث الصلاة الخاصة وأثناء العبادة الجماعية. أينما وجدنا يتسلل نحونا لعله يجد موضعاً في قلوبنا.

أما كونه يأتى من بعيد ، فإنما يعنى أنه يحاربنا من حيث لا نتوقع . لذا يليق بنا أن تكون لنا بصيرة روحية متقدة ، تدرك أسرار الحرب الروحية وتعرف حيل إبليس وخداعاته .

عاشراً : فرسانها يطيرون كالنسر المسرع إلى الأكل :

يقول **العلامة أوريجانوس** أن النسر يستطيع أن يرى فريسته وهو على بعد شاهق ، فبسرعة خاطفة ينقض عليها ويطير، ولا يقدر أحد أن يسحبها من مخالبه . هكذا فرسان إبليس أو شياطينه تراقب النفس لتعرف متى تنقض عليها بسرعة فائقة وخلال المفاجأة المذهلة ينحدر الإنسان إلى الخطية فى فترة قصيرة ليجد نفسه قد خسر الكثير. إن كان البناء يحتاج إلى زمن طويل فالهدم يتم فى لحظات بسيطة ، وإن كانت الفضائل المقدسة تتطلب جهاد طويل فى الرب فإن هدمها يتحقق فى لحظات إهمال بسيطة . وكما يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم** بأن ضربة سيف خاطفة لا تستغرق إلا لحظات تخرج الإنسان ليُعالج منها ربما لسنوات وقد تقضى على حياته . فالعدو يضرب بسيفه فى لحظات إهمالنا... لكن هذه اللحظات تفسد جهاد سنوات طويلة !

حادى عشر : يأتون كلهم للظلم (ع ٩) :

شريعة إبليس أو دستوره الذى يعمل به هو « شريعة الظلم » ، لا يطلب إلا حرماننا من الخير الأعظم ، وسحبنا عن الحياة السماوية حتى لا نرتبط بالشريعة الإلهية أو الحق . يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم** عن الشياطين : « إنها لا تصارع لتنال شيئاً ، إنما لكى تفسدنا نحن... فالشيطان يبذل كل طاقته لكى يطردنا من السماء » (١٨) .

ثانى عشر : منظر وجوههم إلى الأمام :

ربما يقصد بهذا أنهم ليسوا كالبشر لهم الوجه المرتفع الذى يطلب السماء ، وإنما لهم سمة الوحوش الضارية التى تمتد بوجوهها لتفترس بلا حنو ولا شفقة !

ثالث عشر : يجمعون سبياً كالرمل :

يصطاد إبليس النفوس بلا عدد ، ويسبيها كالرمل ، فقد لقب بـ « دهر هذا

العالم»، و«رئيس سلطان الهواء الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية» أف ٢: ٢.
يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم**: «لماذا يدعو (الرسول) الشيطان برئيس العالم؟ لأنه قد التفت البشرية كلها تقريباً حوله، وصاروا عبيداً له بإرادتهم وبمحض اختيارهم».

رابع عشر: تسخر من الملوك، والرؤساء ضحكة لهم (ع ١٠):

فى كل مرة يسقط الشعب تحت السبى يُذل الملك ويصير العظماء موضوع سخرية وهزء أمام المنتصرين، فعندما سبى نبوخذنصر أورشليم ومدن يهوذا أمر بقتل أولاد الملك صدقيا قدام عينيه، وفقأ عينى الملك وحمله إلى بابل للسخرية به. هكذا إذ يسقط مؤمن تحت يدى عدو الخير بسبب استهتاره أو تراخيه يسخر به.

إن كنا فى المسيح يسوع ملك الملوك صرنا ملوكاً روحيين (رؤ ١: ٦، ٥: ١٠)، فإن إبليس يبذل كل طاقاته ليأسرنا مستهيناً بنا.

فى دراستنا لسفر هوشع رأينا أن الملك يشير للإرادة الإنسانية التى تملك على الإنسان لتدير كل أموره، والرؤساء يشيرون إلى طاقات الإنسان ومواهبه... فإنه إذ يأسر العدو إنساناً يسخر من إرادته البشرية، إذ يفقده إياها ليعيش بقية حياته كعبد ذليل يفعل إرادة سيده الجديد (الشيطان)، ويبدد مواهبه وطاقاته (الرؤساء) ليجعل منهم هزءاً وسخرية! عدو الخير يفقد الإنسان كل شىء: إرادته ومواهبه وطاقاته حتى جسده أيضاً، وأخيراً يحمل معه إلى حيث الهلاك الدائم.

خامس عشر: تضحك على كل حصن:

لم يكن للحصون أن تقف أمام أمة الكلدانيين، وهكذا أيضاً لا يستطيع أحد أن يتحصن لا بخبراته الطويلة ولا بقدراته ومواهبه ولا بمعرفته الفكرية العقلانية ولا بكرامته أو نوعية عمله... إذ يضحك إبليس على هذه الحصون، إنما يبقى حصن واحد إن تمسكنا لا يقدر على الاقتراب إليه، ألا وهو السيد المسيح صخر الدهور.

يقول **القديس جيروم** أن السيد المسيح هو الصخرة (١كو ١٠: ٤) الملساء التى لا تقدر الحية أن تزحف عليها، فمن يتحصن فيه يحتمى من العدو، الحية القديمة.

سادس عشر : تكوّم التراب وتأخذه :

إمعاناً فى الإذلال يهدم العدو الحصن الشامخ ويحوله إلى تراب ثم يعود العدو ويستخدم التراب لحساب مملكته أى لصالحه. أقول إنها صورة مرة لعمل إبليس فى حياة المأسورين بواسطته، يحول حياتهم إلى تراب، إذ يسحب قلوبهم إلى الأرض، ويفسد طبيعتهم... وعندئذ يستخدم هذا التراب كأوانٍ خزفية تحمل سماته لاصطياد الآخرين.

إن كان العدو قد سقط من السماء، فهو لا يكف عن أن يبذل كل طاقاته لا ليحرم ضحيته من الحياة السماوية ويتحدر به إلى محبة الأرضيات وإنما يستخدمه أيضاً لإسقاط الآخرين وحرمانهم من السموات التى فى داخلهم.

سابع عشر : تتعدى روحها فتعبر، هذه قوة إلهها (ع ١١) :

تتعدى روحها أو تتغير إلى ما هو أردأ وأشر، فتعبر من شر إلى شر، ومن إثم إلى إثم... متطلعين إلى إثمهم واغتصابهم كقوة إلههم الذى يهبهم النصرة على الشعوب. لقد حسبوا أن آلهتهم أقوى من إله اسرائيل، فازدادوا تمسكاً بوثنيتهم واعتزازاً بها.

٣ ـ حبقوق يرق لشعبه :

حبقوق النبى الذى امتلأ غيرة على مجد الله فصار يصرخ ويئن متساءلاً: لماذا يسكت الله على الأشرار المحيطين بالصديق يفسدون فكره وحياته، إذا به يرى بروح النبوة سقوط الشعب اليهودى المتسم بالظلم فى ذلك الحين يسقط تحت عبودية الكلدانيين المرة فلم يحتمل. وبقدر ما اتسم النبى بانفتاح قلبه نحو الله يحدثه بصراحة ودالة فى غير رسميات أو شكليات اتسم أيضاً بالحب لشعبه فلم يحتمل أن يراه متألماً بواسطة أمة شريرة وقاسية، حتى وإن كان هذا بسماح إلهى للتأديب، إنه لا يحتمل أنات إخوته ومرارتهم، وكأنه يقول مع أرميا النبى: «من أجل سحق بنت شعبى انسحقت، حزنت، أخذتنى دهشة» أر٨: ٢١.

حقاً، الله هو الذى يسمح بتأديب أولاده على خطاياهم، لكنه وهو يؤدب لا يقبل أن يشمت أحد فيهم، بل يطالبنا أن نئن مع أناتهم ونصرخ لأوجاعهم وننسحق مع انسحاقهم. لقد أدبّ الله يهوذا بالسبى البابلى وإذ وقف بنو أدوم شامتين ويخهم

قائلاً: «يجب أن لا ننظر إلى يوم أخيك يوم مصيبته، ولا تشمت ببنى يهوذا يوم هلاكهم، ولا تفغر فمك يوم الضيق» عو١٢.

إذ يرق حبقوق لشعبه الساقط تحت نير الكلدانيين يعاتب الله قائلاً: «**ألست أنت منذ الأزل يارب إلهى قدوسى؟!**» **ع ١٢**. وكأنه يقول: كيف تحتمل يارب أن ترى الكلدانيين الأمة الشريرة تنهب شعبك وتظلمهم وأنت صامت، مع أنك القدوس الذى لا يطيق الشر؟! أنت إلهى الملتزم بسلامى وطمأنينتى لا من جهة نفسى فحسب وإنما من جهة الشعب كله أيضاً. إن كنت إلهى المهتم بى أفلا تهتم أنت بشعبك؟!

ما أجمل مشاعر النبى فى لحظات العتاب المرة ينادى الرب «إلهى، قدوسى»، وكأنه فى ضيقة نفسه يجد الرب ملاصقاً له، يهتم به ويحتضنه منسوباً إليه، فهو إلهه هو وقدوسه هو!

لنعاتب الرب بكل مرارة، لكن فى عتابنا نرى التصاقه بنا ونسبه إلينا فنلتصق بالأكثر به ونرتمى فى أحضانه مؤمنين بعمله معنا وفينا.

حينما ينفتح قلبنا بالحب نحو الآخرين ونشفع فيهم أو نطلب عنهم يصير الرب منسوباً لنا، إذ يلاصق المحبين ويفخر بأولاده المتسعة قلوبهم!

يكمل النبى عتابه، قائلاً: «**لا نموت. يارب للحكم جعلتها، ويا صخر للتأديب أسستها**» **ع ١٢**.

يقول النبى: «**لا نموت**»، فقد أدرك أن الرب إلهه وقدوسه الأزلى فى محبته لشعبه يسكب سماته عليهم، إذ هو أزلى فوق حدود الزمان يهب أولاده «الخلود»، لن يموتوا... وإن كانوا فى شرهم يستحقون الموت، لكن فى الرب الحى يحيون. يقول السيد الرب: «إنى أنا حى فأنتم ستحيون» يو ١٤: ١٩. لقد أسلمهم للكلدانيين للتأديب، لكن كما يقول المرتل: «تأديباً أدبنى الرب وإلى الموت لم يسلمنى» مز١١٨: ١٨.

الله وهب الكلدانيين السلطة أن يؤدبوا الشعب، وأن «يغتنموا غنيمة وينهبوا نهباً» أش ١٠: ٦، لكن ليس سلطة بلا حدود بل بالقدر الذى يرى الله فيهم

خلاص شعبه، لذا يقول النبي: «**يارب للحكم جعلتها، ويا صخر للتأديب أسستها**»، فحدود السلطان هو أن يكون عملهم واغتصابهم للتأديب والحكم وليس للهلاك. لهذا عندما سأل الشيطان الرب أن يسمح له بضايقة أيوب، أجابه الرب: «**ها هو فى يديك ولكن إحفظ نفسه**» أى ٢: ٧. يقول الرب للبحر «**إلى هنا تأتى ولا تتعدى، وهنا تخم كبرياء لججك**» أى ٣٨: ١١، فهو يسمح له أن يتدفق ولكن إلى حدود وضعها له.

وبالنسبة لنا إن كان الله يسمح للشيطان بمهاجمتنا لكن فى حدود، بهجومه نغلب إن كنا يقظين وشاكرين، فتتحول الحرب إلى غلبة ونصرة، وإن تراخينا وأهملنا فلا يكون الشيطان غلة أذيتنا بل نحن السبب، وكما يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم**: «قد يقول قائل: ألم يؤذ آدم إذ أفسد كيانه وأفقده الفردوس؟ لا، وإنما السبب فى هذا هو إهمال من أصابه الضرر، وعدم ضبطه لنفسه وجهاده. فالشيطان الذى استخدم مكائد قوية مختلفة لم يقدر أن يخضع أيوب، فكيف استطاع بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم؟!»(١٩).

فى الوقت الذى يعلن فيه النبى طمأنينته أن الله إلهه القدوس الأزلى لن يسمح للشعب بالموت، إنما يستخدم الكلدانيين للتأديب، يعود فيعاتب: «**عيناك أطهر من أن تنظرا الشر، ولا تستطيع النظر إلى الجور، فلم تنظر إلى الناهبين، وتصمت حين يبلع الشرير من هو أبر منه؟!**» ع ١٣.

يعلم النبى حبقوق ما قاله داود المرتل: «لأنك أنت لست إلهاً يُسر بالشر، لا يساكنك الشرير» مز ٥: ٤، ويدرك ما أدركه أرميا أن الله يبغض الرجس (أر ٤٤: ٤)، لكنه كان فى حيرة كيف يصمت أمام ما يفعله الكلدانيون **الأشرار** بشعبه ويتطلع إلى الظلم فقد ابتلع الشرير من هو أبر منه. وهنا لا يقول ابتلع «البار» لأن الشعب كان شريراً، ولكن إن قورن بالكلدانيين فهم أبر منهم.

لعل كلمة «تنظر» أو «تتطلع» هنا لا تعنى مجرد الرؤية، فالله عالم بكل شىء، وليس شىء مخفياً عنه، لا يحتاج أن ينظر ليرى، وإنما يقصد بذلك أنه يرضى على تصرفاتهم وينجح طرقهم. فنظرة الله إلينا إنما تعنى اهتمامه بنا وإنجاحه طريقنا.

بدأ النبي يبرز سمات هؤلاء الكلدانيين الأشرار الذين أنجح الرب طريقهم إلى حين :

« وتجعل الناس كسمك البحر كدبابات لا سلطان لها ،
تطلع الكل بشصها ، وتصطادهم بشبكتها ، وتجمعهم فى مصيدتها .
فلذلك تفرح وتبتهج .
لذلك تذبح لشبكتها ، وتبخر لمصيدتها ،
لأنه بها سمن نصيبها ، وطعامها مسمن (من الصفوة - الترجمة السبعينية)
أفلأجل هذا تفرغ شبكتها ولا تعفو عن قتل الأمم دائماً » ع ١٤ - ١٧ .

لقد تطلعوا إلى الشعوب الأخرى كسمك فى البحر بلا مالك من حقهم أن يصطادوا ما يشاؤون ليأكلوا ويشبعوا ، وكدبابات لا سلطان لها بلا ثمن يفعلون بها ما يريدون . إنهم يفرحون ويبتهجون حينما يأتى الشص بسمكة أو تجمع شباكهم الكثير ويسقط الناس فى مصيدتهم ... يفرحون بالصيد البشرى مقدمين ذبائح وثنية وبخوراً لآلهتهم الواهية فهم هذا الصيد الثمين . كأن النبى يقول للرب : أتقبل أن يكون شعبك سمكاً بلا ثمن فى شباك وثنية ، يلتهمه الأشرار مقدمين ذبائح شكر للأصنام وبخوراً أمام الأوثان ؟! إن شعبك - بالرغم مما بلغ إليه من انحراف - لكنه ثمين فى عينيك ، فكيف تتركه صيداً لهؤلاء الكلدانيين ؟!

تفرح أمة الكلدانيون بصيد هذا الشعب أكثر من اصطيادها أى شعب آخر ، إذ يقول النبى : « لأن بها (بالشص والشبكة) سمن نصيبها وطعامها مسمن » ، أو كما يقول فى الترجمة السبعينية « طعامها من الصفوة Choicest » ، فهى لا تفرح إلا بالصيد المختار . هكذا يصوب إبليس سهامه بالأكثر على أفضل المؤمنين ليسحبهم من إيمانهم وكما يقول **القديس چيروم** : « لا يهتم الشيطان بغير المؤمنين إذ هم فى الخارج ... إنما يريد أن يفسد كنيسة المسيح » (٢٠) .

والعجيب أن العدو إبليس كالكلدانيين كلما سمن نصيبه ازدادت شراهته والتهب قلبه بالأكثر لاصطياد آخرين ، إذ قيل « أفلأجل هذا تفرغ شبكتها ولا تعفو عن قتل الأمم دائماً .

□ □ □

إذ سأل النبي الرب عن موقفه تجاه الكلدانيين الذين استخدمهم الرب كعصا غضبه لتأديب شعبه فإذا بهم يحسبون أنهم غالبون الأمم بقوتهم واقتدارهم كحق لهم... قدم له الرب إجابة مطمئنة:

١ ـ ترقب النبي إجابة الرب	١ .
٢ ـ إهتمام الرب بالسؤال	٢ ـ ٣ .
٣ ـ معاقبة الكلدانيين :	
أولاً : الكبرياء والفراغ الداخلي	٤ ـ ٨ .
ثانياً : الربح القبيح	٩ ـ ١١ .
ثالثاً : العنـــف	١٢ ـ ١٤ .
رابعاً :الســكر	١٥ ـ ١٧ .
خامساً : الوثنية	١٨ ـ ٢٠ .

+ + +

١ ـ ترقب النبي إجابة الرب :

« على مرصدى أقف ، وعلى الحصن أنتصب ، وأراقب لأرى ماذا يقول لى ، وماذا أجيب على شكواى ؟! »ع ١ .

كثيراً ما تدور فى أفكارنا تساؤلات يليق بنا لا أن نعرضها على الرب فحسب وإنما نقف كما على مرصد نترقب إجابة الرب علينا ، نقف كما على حصن مطمئنين

بإيمان وثقة أكيدة أن الله محب البشر لا يخفى أسراره عنا، ولا يعمل إلا ما هو لبنيانا. هكذا وقف النبي بعد تقديم تساؤله على المرصد ينتظر سماع صوت الرب داخله، وعلى الحصن يحتمى فيه حتى لا يتحول التساؤل إلى زعزعة إيمان. هذا المرصد وهذا الحصن ما هما إلا شخص ربنا يسوع، به تتفهم الأسرار الإلهية الفائقة كما من خلال مرصد فائق، وفيه نتحصن بكونه الصخرة الحقيقية التى عليها تأسست الكنيسة وفيها نحتمى. إنه المرصد الذى بدونه لا نعرف الآب إذ يقول: «لا أحد يعرف الآب إلا الإبن ومن أراد الإبن أن يعلن له» (مت ١١: ٢٧). وهو الصخرة التى تحتمى فيها الكنيسة كحمامة وديعة يناديها: «يا حمامتى فى محاجىء الصخر فى ستر المعاقل أرينى وجهك أسمعينى صوتك» (نش٢: ١٤).

ويرى القديس **چيروم** (٢١) أن حبقوق إذ يقف كما على مرصد ليراقب وينتصب وكما فى برج يتحصن إنما يقوم بهذا الدور كجندى روحى يصارع ضد إبليس بلا استسلام، يتأمل أعمال الله وأسراره خاصة بالصليب فيمتلىء قوة للحرب الروحية ضد الشر.

٢ - إهتمام الرب بالسؤال :

مادامت النفس تطلب وتقف لترصد كلمات الرب واستجابته، محتمية فيه كحصن لها، منتصبة للجهاد الروحى خلال المعرفة الإلهية، فإنه يدوره لا يبخل عليها إذ يقول النبى: **«فأجابنى الرب وقال: أكتب الرؤيا وانقشها على الألواح لكى يركض قارئها لأن الرؤيا إلى ميعاد، وفى النهاية تتكلم ولا تكذب، وإن توانت فانتظرها لأنها ستأتى إتياناً ولا تتأخر»** ع ٢، ٣.

كأن الرب يطالبه لا أن يأتى إليه بقلم وورقة ليكتب ما يراه ويسمعه، إنما الحاجة إلى ألواح ينقش عليها كلمة الله بخط واضح تجتذب ناظرها فيأتى راكضاً إليها ـ هذا ووضوح الخط يمكّن حتى الذين يجرون أن يقرأوها(٢٢). فى إشعياء قيل: «تعال الآن أكتب هذا عندهم على لوح وارسمه فى سفر ليكون لزمن آت للأبد» (أش ٣٠: ٨). هذا وأن الرؤيا قد لا تتحقق فوراً إنما فى الميعاد المحدد، فى ملء الزمان، لذا يليق بالنبى أن ينتظر واثقاً أنها حادثة لا محالة حتى وإن بدت متأخرة.

ما هذه الرؤيا التى يتحدث عنها هنا إلا تلك الخاصة بسرّ الصليب الذى يتحقق فى ملء الزمان حين يتجسد كلمة الله ، هذا الذى سجل المحبة الإلهية بدمه المبذول لا بحبر وورق وإنما رسمه على لوحى الصليب أو عارضتيه الطولية والعرضية ، مجتذباً الكل إليه .

لنركض بالروح القدس إلى الصليب لنقرأ ما قد نقشه الإبن الوحيد الجنس معلناً لنا الأسرار الإلهية الفائقة ! هنا لا نجد الكلدانيين الأشرار يهلكون وإنما إبليس ذاته وكل شياطينه قد انهاروا تماماً وتحطم كل سلطان اختلسوه .

٣ ـ معاقبة الكلدانيين :

إذ يرفع الرب نبيه حبقوق إلى الرؤيا الخاصة بالصليب محطم مملكة إبليس يعود فيكشف أعمال إبليس فى حياة الكلدانيين الأشرار هذه التى يحطمها الصليب . وكأنه يكشف لنا الغرس الشرير الذى لم يغرسه الآب بل هو من زرع عدو الخير ، هذا الذى قال عنه السيد إنه يجب أن يُقلع (مت ١٥ : ١٣) . هذه الغروس الشريرة التى يحطمها هى :

أولاً : الكبرياء والفراغ الداخلى :

« هوذا منتفخة غير مستقيمة نفسه فيه ، والبار بالإيمان يحيا ، وحقاً إن الخمر غادرة . الرجل المتكبر لا يهدأ » ع ٤ ، ٥ .

إن كان الله قد سمح بتأديب شعبه بواسطة الكلدانيين الوثنيين ، فقد تعجرف الكلدانيون وظنوا أنهم بقدرتهم واقتدارهم غلبوا وانتصروا . لذلك يحقق الله غايته بهم أى تأديبه أولاده ليعود فيعاقبهم على كبرياء قلبهم . وكما قيل بأشعياء النبى عن أشور أنه قضيب غضب الله وعصاهم فى يدهم هى سخطه (أش ١٠ : ٥) ، يحقق بهم غايته ... « فيكون متى أكمل السيد عمله بجبل صهيون وبأورشليم أنى أعاقب ثمر عظمة قلب ملك أشور وفخر رفعة عينيه ، لأنه قال : بقدرة يدى صنعت وبحكمتى لأنى فهيم ، ونقلت تخوم شعوب ونهبت ذخائرهم وحططت الملوك كبطل ، فأصابت يدى ثروة الشعوب ، كعش وكما يُجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفصف . هل يفتخر الفأس على القاطع بها ، أو

يتكبر المنشار على مردده؟! كأن القضيب يحرك رافعه، كأن العصا ترفع من ليس هو عوداً» (أش ١٠: ١٢-١٥).

هذا هو عمل إبليس فى حياة الإنسان ... الكبرياء، فيظن الإنسان أنه بقدرته وحكمته يحقق غايته، ولا يدرك أن كل طاقة وإمكانية هى من الله حتى وإن شوه الإنسان طبيعتها وحرفها عن غايتها.

بالكبرياء سقط إبليس من رتبته الملائكية واندحر إلى أعماق الهاوية (أش ١٤: ١٢، عو ٤)، لذا فهو لا يكف عن ضرب البشرية بذات الداء ليحدرها معه من الحياة الإيمانية، ويفقدها التمتع بالملكوت الإلهى ويهبط بها إلى ما هو دون المستوى الحيوانى. يقول القديس يوحنا الذهبى الفم: «من يرتفع بفكره متشامخاً فوق كل البشر يوجد منحطاً دون الخليقة غير العاقلة(٢٣)».

إن كان الشرير بالكبرياء الشيطانى يهلك، فإن «البار بالإيمان يحيا».

يرى الدارسون أن هذه العبارة «البار بالإيمان يحيا» هى قلب نبوة حبقوق وعصبها، وكما قيل «هذه الكلمات الشهيرة تلخص الرؤيا كلها(٢٤)». إقتبسها الرسول بولس ليؤكد أنه لا يمكن التبرير بأعمال الناموس إنما بالإيمان بالمسيح يسوع، مختفين فى بره. يقول القديس أغسطينوس: «فيه نقوم، وفيه ننطلق إلى الآب لنصير كاملين بطريقة غير منظورة ومتبررين(٢٥)». فالبر ليس مجموعة يستلزم الإيمان السليم غير المنحرف، وكما يقول القديس أغسطينوس: «حيث لا يوجد إيمان سليم لا يكون برّ، لأن البار بالإيمان يحيا(٢٦)».

نعود للكبرياء الذى يزرعه عدو الخير فينا ليحرمنا من الحياة الإيمانية الحقة وينزعنا عن البرّ الذى فى المسيح يسوع، لنجد أن هذا الكبرياء الفارغ يعطى للنفس نوعاً من الجوع أو العطش الداخلى خلاله يطلب الإنسان أن يشبع لا من برّ الله وإنما من كل ما هو أرضى خلال الظلم والإغتصاب... وقدر ما ينال يزداد فراغه الداخلى، ليبقى بلا شبع كل أيام حياته.

بهذا الروح كان الكلدانيون يهاجمون الأمم ويصطادون البشرية ويذلونهم بلا شبع حقيق: «الذى وسع نفسه كالهاوية، وهو كالموت فلا يشبع بل يجمع إلى نفسه كل الأمم ويضم إلى نفسه كل الشرور، فهلا ينطق هؤلاء كلهم بهجو

عليه ولغز شماتة به ويقولون للمكثر ما ليس له: إلى متى؟! وللمثقل نفسه رهوناً: ألا يقوم بغتة مقارضوك ويستيقظ مزعزعوك فتكون غنيمه لهم؟! لأنك سلبت أمماً كثيرة، فبقية الشعوب كلها تسلبك لدماء الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها» ع ٥-٩.

إن أخذنا بالتفسير الحرفي نقول أن الكلدانيين قد وسعوا نفوسهم كالقبر، يبتلعون الشعوب كالموتى ولا يشبعون. في تحرك مستمر لاغتصاب الأمم والشعوب بالظلم بلا توقف. لكن هذا العمل له نهاية، فتنقلب الموازين وتتحرر الأمم المسبية، لتقف موقف الشماتة بالكلدانيين وتسخر بهم، قائلة:

« ويل للمكثر ما ليس له، إلى متى ؟ » ... يصبون الويلات على الكلدانيين الذين حسبوا أنهم نالوا الكثير، ولكنه في الحقيقة ليس ملكاً لهم، إنهم يردون ما حسبوه غنيمة!

« المثقل نفسه رهوناً (طيناً كثيفاً) » ... ما جمعوه ليس بثروة وإنما بطين كثيف، ليس ذهباً وفضة لكنهم جمعوا تراباً يثقل نفوسهم بمحبة العالم الأرضي.

« ألا يقوم بغتة مقارضوك ويستيقظ مزعزعوك ؟ » ، في لحظة لا يتوقعها الكلدانيون، بينما هم مطمئنون للغاية يقوم من كانوا كمن في حالة نوم ليصير الكلدانيون غنيمة لهم بعد أن سبقوا فاغتنموهم. كما سلبوا الأمم، الأمم تسليهم، وكما سفكوا الدماء تُسفك دماءهم، وكما عبثوا بالأرض والمدن يُعبث بهم.

لا يقف الأمر عند شيع الكلدانيين وإنما يفقدون ما ظنوه مكسباً لهم، ويخسرون مالهم وكرامتهم... فيُقال لهم «كما فعلت يفعل بك، عملك يرتد على رأسك» ع١٥.

إن كان الإنسان يظن أن الخطية بشهواتها وملذاتها تشبع النفس، فإن الحقيقة تدخل بها إلى حالة فراغ داخلي وجوع وعطش... فيركض الإنسان إليها ليشرب منها كما من مياه البحر المالحة التي تزيده عطشاً، بل وتفقده حتى حياته.

ثانياً: الربح القبيح:

« ويل للمكسب بيته كسباً شريراً، ليجعل عشه في العلو، لينجو من كف الشر. تآمرت الخزي لبيتك، إبادة شعوب كثيرة وأنت مخطىء لنفسك،

لأن الحجر يصرخ من الحائط ، فيجيبه الجائز من الخشب » ع ٩-١١ .

هذا هو الويل الثانى ، الأول سبب خطية الكبرياء غير المشبعة للنفس بل مهلكة لها ، أما الثانى فبسبب حب الربح القبيح . يظن الشرير أنه بملأ بيته خيرات ولم يدرك أنه يجمع كسباً شريراً يجلب لعنة على كل بيته . يقول الحكيم : « المولع بالكسب (الطامع) يكدر بيته » (أم ١٥ : ٨) . إنه يجمع الربح القبيح حاسباً أنه يطير به إلى حيث لا يقدر أحد أن يقترب منه ليبنى عشه فى العلو ، وإذا به يبنى بيته بالحرى ، فيخطىء إلى حق نفسه . الحجارة التى اقتناها بمال الظلم لبناء البيت تصرخ شاهدة على شره ، والعوارض الخشبية التى بها يتماسك البناء لا تصمت ، البيت الذى يبنيه من مال الظلم يتحول إلى آلة محزنة تنشد مرثاة على صاحبها .

لقد ظن آخاب الملك وزوجته إيزابل أنهما قتلا نابوت اليزرعيلى وورثا كرمه وليس من يسألهما ولا من يراقب تصرفاتهما ، فإذا بهما يقتنيان هلاكهما ، إذ كان كلام الرب لآخاب خلال إيليا النبى : « فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً » (١مل ٢١ : ١٩) .

ثالثاً : العنـــف :

« ويل للبانى مدينة بالدماء ، وللمؤسس قرية بالإثم .
أليس من قبل رب الجنود أن الشعوب يتعبون للنار ، والأمم للباطل يعيون ؟!
لأن الأرض تمتلىء من معرفة مجد الرب كما تغطى المياه البحر »
ع ١٢-١٤ .

هذا هو الويل الثالث الذى ينصب على الإنسان الذى فى محبته للكسب الشرير أو الربح القبيح يتحول إلى وحش مفترس ، فيبنى مدينته بسفك الدماء ويؤسس قريته بقانون الإثم . يقول **القديس يوحنا الذهبى الفم** أن الإنسان صار أشر من الحيوانات المفترسة ، فإنها لا تأكل بعضها البعض مادامت من نفس النوع ، أما الإنسان فيفترس الأخ أخاه فى البشرية ، ويظن أنه غير قادر على بناء مدينة يستريح فيها إلا على حساب دم أخيه !

على أى الأحوال تمتلىء الأرض من معرفة مجد الرب عندما يرى العالم أن الظالمين سافكى الدماء تعبوا لا ليقيموا مدناً أو يؤسسوا قرى وإنما ليصيروا وقوداً للنار، باطلاً يتعبون حتى يصيبهم المرض من الإرهاق، وبلا نفع!

إن كانت أجسادنا بسفكها للدماء أو إثمها صارت أرضاً، فإنها إذ تتقبل تقديس الروح تمتلىء من معرفة مجد الرب، فتحمل روح مخلصها الوديع، وإن كانت حياتنا قد صارت بحراً مالحاً فإن مياه الروح القدس العذبة تحول طبيعتها.

أخيراً إن كان الظلم يصل إلى أقصى بشاعته حينما يصير الإنسان سافكاً للدم، فإن القديس چيروم يرى أن الهراطقة هم أشر سافكى الدم، لا يقتلون الجسد بل النفوس بالإنحراف عن الإيمان الحق، أى عن الحق، إذ يقول «الهرطوق الكاذب يقتل نفوس كثيرة بخداعه إياها... إنه مخادع ومتعطش للدماء(٢٧)».

رابعاً: السكر:

« ويل لمن يسقى صاحبه سافحاً حموك ومسكراً أيضاً للنظر إلى عوراتهم،
قد شبعت خزياً عوضاً عن المجد،
فاشرب أنت أيضاً واكشف غرلتك،
تدور إليك كأس يمين الرب،
وقياء الخزى على مجدك » ع ١٥، ١٦.

الويل الرابع لخطية السكر، فإن من يسكر إذ يجد نفسه قد فقد كرامته الحقيقية واتزانه الداخلى يقدم لصاحبه، سافحاً الزجاجة له لكى يغريه بمنظرها، حتى كما فقد هو نقاوته يريد النظر إلى عورة أخيه أى أسراره الداخلية لإفساده فى أعماقه.

من هو هذا الذى يقدم السكر إلا عدو الخير الذى يجتذب الإنسان بإغراءاته كمن هو صاحبه ليفقده مسيحه الحقيقى ويجعله كمن هو فى فضيحة. هذا التصرف لا يزيد العدو مجداً بل خزياً، فإن ظن أنه بذلك يقيم مملكته ويوسع نطاقها إنما يملأ كأس غضب الله عليه ليشرب مما قدمه لنا من مرارة مضاعفاً «فى الكأس التى مزجت فيها يمزج لها ضعفاً» رؤ ١٨: ٣،٦.

« قياء الخزى على مجدك » ع ١٦ ، هكذا يتطلع الذين حوله إليه فلا يجدون فيه مجداً حقيقياً ولا غنى صادقاً ، فيتقيأون على مجده الباطل! هكذا من يعطى الآخرين من مسكر الخطية إنما يهيىء لنفسه من يتقيأ عليه ويخزيه!

ما نقوله عن مسكر الخطية الذى يجتذبنا إليه إبليس ، نقوله أيضاً عن حياة الترف والتدليل ، الحياة التى تحمل فى داخلها موتاً للنفس وخزياً عوض المجد الظاهر. وكما يقول القديس يوحنا الذهبى الفم : « الإنسان الذى يعيش فى الملذات ميت وهو حى ، إذ لا يعيش إلا لبطنه ... من يقضى زمانه فى الولائم والسكر ألا يكون ميتاً ويدفن فى الظلمة ؟! (٢٨) » .

خامساً : الوثنيـــة :

« ماذا نفع التمثال المنحوت حتى نحته صانعه أو المسبوك ومعلم الكذب حتى إن الصانع صنعة يتكل عليها فيصنع أوثاناً بكماً .
ويل للقائل للعود استيقظ ، وللحجر الأصم انتبه .
أهو يعلم ، ها هو مطلى بالذهب والفضة ، ولا روح البتة فى داخله ،
أما الرب فى هيكل قدسه ،
فاسكتى قدامه يا كل الأرض » ع ١٨ - ٢٠ .

هذا هو الويل الأخير الذى وُجه ضد الكلدانيين الذين افتخروا بآلهتهم التى هى من صنع أيديهم . حقاً إنها تكشف عن حذاقة فى الصناعة ومهارة فى العمل ، أنفقوا الكثير لإقامتها إذ هى مطلية بالذهب والفضة لكنها فى الداخل حجارة بلا روح ولا حياة!

ماذا تنفعهم هذه الأصنام يوم عقوبتهم ؟! لقد طلبوا من العدو أى من البعل الخشبى أن يستيقظ ليخلصهم ، ومن الإلهة الحجرية عشتاروت زوجة الإله بعل أن تنتبه لما حلّ بهم وترق لحالهم ، لكنها لا يقدران على الخلاص . إنها إلهان جميلان فى المنظر لكنها عاجزان تماماً ، أما الله الحقيقى فى هيكل قدسه لا تقدر الأرض أن تقف أمامه .

عجيب هو الإنسان الذى يترك إلهه القائم فى قلبه كما فى هيكل سماوى ،

ويسعى إلى أفكاره الذاتية وكأنها الآلهة الوثنية الجميلة فى منظرها وبراقة لكن بلا حياة، وعاجزة عن تقديم الخلاص.

مسكين هو الإنسان الذى يرفض واهب الخلاص الذى يجعل من قلبه سماء ويتعبد للأفكار والفلسفات البشرية المخادعة فتجعل منه أرضاً... إنه لا يقدر أن يقاوم الرب، إذ يسمع الصوت: «أسكتى قدامه يا كل الأرض» ع٢٠.

ليتنا لا نكون أرضاً تسكت وتبكم أمام الله وإنما نكون سماء روحية تحمل كلمة الله وأصوات سماوية مفرحة وتسبحة ملائكية لا تتوقف.

□ □ □

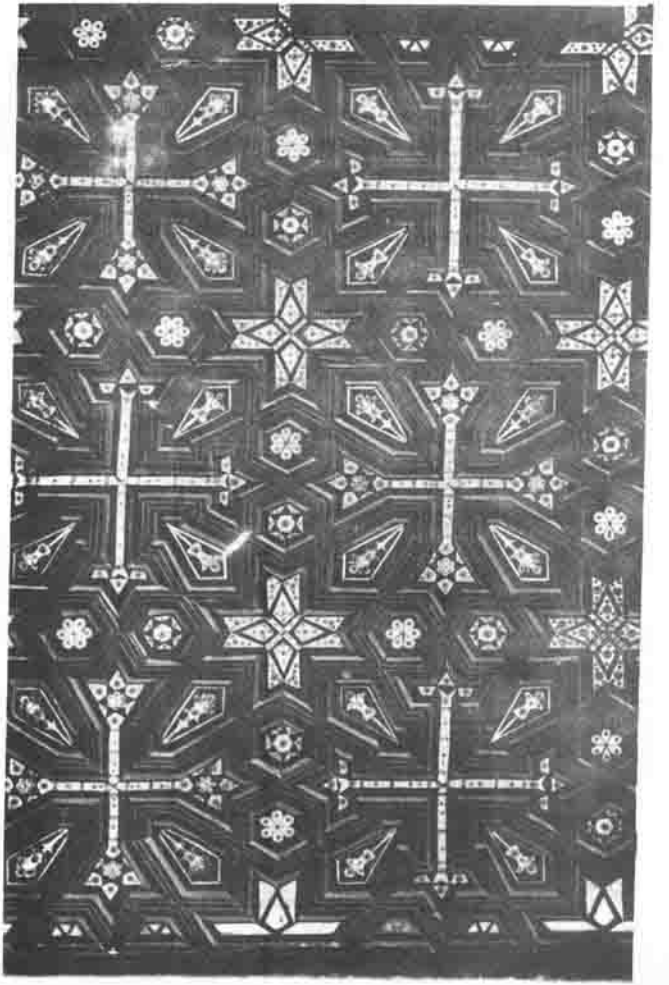

إن كان حبقوق قد دخل إلى الألم الداخلى والضيق الخارجى ، لكن وسط الآلام يتمتع بتعزيات الروح القدس الذى يكشف للمؤمن الأسرار الإلهية وسط المرارة فتتحول حياة الإنسان كلها إلى تسبحة حمد ومجد لله . هكذا يختم النبى السفر بمزمور حمد أو تسبحة مجد لله تقدم لنا :

١ ـ أعمال الله عبر السنين	١ ، ٢ .
٢ ـ أعمال الله على جبل سيناء	٣ ـ ١٢ .
٣ ـ بهجة الخلاص	١٣ ـ ١٩ .

+ + +

١ ـ أعمال الله عبر السنين :

« صلاة لحبقوق النبى على الشجوية (الأوتار) :
يارب قد سمعت خبرك فجزعت ،
يارب عملك فى وسط السنين أحيه ، فى وسط السنين تعرف ، فى الغضب أذكر الرحمة » ع ١ ، ٢ .

إذ وقف النبى على المرصد يترقب كلمة الله وإذ انتصب على البرج الإلهى متحصناً تهللت نفسه فى داخله بالرغم من كل الظروف القاسية المحيطة به . وفيما كان النبى يئن من أجل شعب الله إذا بالله يكشف له خطته الخلاصية عبر العصور

التى تجلت على الصليب فتهلل ممسكاً بقيثارة الروح ليضرب على أوتارها مزمور تسبحة، قائلاً:

« يارب قد سمعت خبرك (كلامك) فجزعت » ، وكأنه يقول يارب إذ سمعت كلامك امتلأت نفسى رهبة وخشية، كشفت لى أسرارك وأدركت أعمالك فصرت فى دهشة!

لم تقف رؤيته عند حدود أعمال الله فى عصره وإنما امتدت ليراها عبر العصور، مدركاً أن الله فى محبته وإن كان يغضب فيؤدب لكنه حتى فى غضبه لا يحتمل أنات شعبه إنما يعود فيرحم. « يارب عملك فى وسط السنين أحيه، فى وسط السنين عرف، فى الغضب أذكر الرحمة » . حقاً إن الرب يغضب على شر الإنسان، لكنه فى وسط غضبه تئن مراحمه، الأمر الذى عبّر عنه هوشع النبى فى صورة رائعة، قائلاً على لسان الرب: « قد انقلب علىّ قلبى، اضطرمت مراحمى جميعاً، لا أجرى حمو غضبى، لا أعود أخرب أفرايم، لأنى الله لا إنسان، القدوس فى وسطك فلا آتى بسخط » (هو ١١: ٨، ٩).

إنّ كان الله إله محتجب أو متحجب كما قال إشعياء النبى (أش ٤٥: ١٥)، لكنه يعلن ذاته لشعبه عبر الأجيال خلال مراحمه التى يظهرها حتى فى لحظات الغضب الإلهى والتأديب... ولعل ما يقدمه الله عبر السنين من إعلانات إنما يظهر عملياً فى تغيير البشرية التى فسدت وأقامتها من سقوطها. وكما يقول **القديس جيروم**: « الله يصنع عجائب كل يوم، إنه يعمل... أنتم أعمال الله العجيبة، فبالأمس كنت مغتصباً ما للغير واليوم تقدم للآخرين ما هو لك (٢٩) ». هذا التغير هو غاية كلمة الله المعلنة خلال الناموس الموسوى، التى تجلت بكمالها خلال تجسد الكلمة الإلهى وإعلانه الخلاص على الصليب. لهذا يعود النبى إلى أعمال الله مع شعبه فى البرية بتقدم الناموس على جبل موسى لينطلق بهم إلى أعماله خلال المسيا المخلص.

٢ - أعمال الله على جبل سيناء :

إنسحب قلب النبى حبقوق إلى عمل الله حين ارتفع موسى على الجبل ليتسلم الشريعة فامتلأ الجبل بهاءً ومجداً، وأشرق الله بنوره على شعبه لينطلق قلبه ولسانه،

نفسه وجسده بالفرح والتسبيح ، قائلاً :

« الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران . سلاه .
جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه » ع ٣ .

يشير هنا إلى ظهور الله فى مجده بطريقة ملموسة عندما استلم موسى الشريعة وكما قيل « نزل الرب على جبل سيناء » (خر ١٩ : ٢٠) ، « وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل » (خر ٢٤ : ١٧) ، « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأت من جبل فاران » (تث ٣٣ : ٢) .

إذ جاءنا خلال الشريعة غطى بهاؤه السموات ، وامتلأت الأرض من تسبيحه . ما هذه السموات والأرض إلا النفس البشرية والجسد اللذان يتقدسان بكلمة الله فتتلألأ النفس بمجد الرب ويمتلىء الجسد فرحاً وتهليلاً . بالكلمة الإلهى تمتلىء النفس بالنور الإلهى والمعرفة السماوية ، أما الجسد فيتحول بكل أعضائه إلى قيثارة فى يدى الروح القدس يعزف عليها تسبحة فريدة سماوية . بمعنى آخر يتجلى الله فى حياة الإنسان بكليتها ، فى نفسه كما فى الجسد . يقول **القديس چيروم** : « غنوا حمداً حقيقياً ، رغموا بكل جزء من كيانكم . لترنم يدك بالعطاء ، وقدمك بالإسراع نحو عمل الخير... لتعطِ كل أوتارك صوتاً ، فإن توقف وتر واحد تفقد القيثارة كيانها . ماذا ينفعك إن كنت عفيفاً ولكنك طماع ؟! ماذا تستفيد إن كنت طاهراً وسخياً فى العطاء لكنك فى نفس الوقت حاسد ؟! ما هو نفعك إن كان لك ستة أوتار صالحة والسابع منكسر ؟! فإن وتراً واحداً منكسراً يفقد القيثارة إمكانيتها فى تقديم صوت متكامل (٣٠) » .

جاء فى الترجمة السبعينية : « الله يأتى من الجنوب ، والقدوس من الجبل المظلل » ، ويعلق **القديس چيروم** على هذه العبارة : « الله يأتى من الجنوب . هنا يشير إلى المخلص ، حيث ولد الله فى الجنوب ، لأن بيت لحم جنوب أورشليم (٣١) » . ويرى **القديس ديدیموس الضرير** أن الجنوب يشير إلى الرياح الحارة التى تهب على النفس فتلهبها بالروح ، أو بالحب فلا يكون بارداً ، أما الشمال فيشير إلى الرياح الشمالية الباردة التى تشير إلى عمل الشيطان الذى يفسد حرارة الروح ، لذا فى سفر النشيد طلبت العروس أن ينزع عنها ريح الشمال الذى هو عمل إبليس وتأتيها ريح

الجنوب التي تشير للمخلص عريسها نفسه (٣٢).

يكمل النبي تسبحته، قائلاً: **« وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته » ع ٤.** كأنه يقول: كنت أظن أن الأمور تسير بلا تدبير، الشرير يلتهم البار، وأمة الكلدانيين تبتلع بقية الشعوب، ليس من يحاسبها ولا من يصدها، لكنني وقد أدركت أسرار معرفتك وجدتك النور الأزلي المدرك للأسرار الخفية، ليس شيء مخفياً عن عينيك. تمد يدك للعمل وإذا بشعاع يصدر عنها يفضح السالكين في الظلمة، عندئذ يدرك الكل قدرتك التي كانت مستترة إلى حين.

جاءت العبارة « له من يده قرنان » أي نور قرون الشمس كما جاء في ترجمة اليسوعيين، هذان القرنان اللذان في يده هما لوحا الشريعة اللذان تسلمها موسى النبي، وكما قيل: «عن يمينه نار شريعة لهم» (تث ٣٣: ٢).

« قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت (طردت) الحمى » ع ٥.
بظهوره يطرد وباء الشر والظلمة، وعند رجليه أي بسلطان يأمر الحمى فتطيعه.

« وقف وقاس الأرض. نظر فرجفت الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم، مسالك الأزل له » ع ٦.
يقف ليقيس الأرض، فهي خليقته التي يهتم بها، من أجلها يقف ليعمل ولا يستريح حتى يُعلن أحكامه فترتجف الأمم الشريرة وتدك الجبال المتشامخة والآكام القديمة. إنه السرمدي الذي يدبر كل الأمور لتعمل في الوقت الحسن. وكأنه يقول: كنت أظن العالم أشبه ببحر مملوء سمكاً تصطاده الأمة الشريرة بلا ضابط لكنني أدركت أن كل شيء غير مخفٍ عنك.

إن كانت الأرض كما قلنا قبلاً تشير إلى الجسد، فإن الله وقف ليقيسه علامة اهتمامه به وتقديسه إياه، حيث يرجف الأمم الوثنية القاطنة هناك أي ينزع عن الجسد كل شر وضعف روحي، ويدك الجبال المتشامخة أي الخطايا التي تبدو عنيفة للغاية ليس من يقدر أن يحركها. أمام الله تتزعزع آكام الجسد التي تثقل النفس.

هنا يصف النبي الله كمن هو في حالة وقوف: **« وقف وقاس الأرض ».**

وكما يقول القديس جيروم أن الله لا يتغير وليس له أوضاع جسدية لكنه يقال عنه أنه واقف حينما يتعامل مع الأبرار، ويقال عنه أن يظهر ماشياً عندما سقط آدم (تك ٣: ٩)، ويظهر جالساً بكونه الديان والملك (أش ٦: ١)، وناعساً كما في السفينة عندما يكون الإنسان بين زوابع التجربة، ويظهر قائماً كما قيل «الله قائم في مجمع الآلهة» (٣٣). إذن يتحدث هنا عن الأرض وقد تمتعت ببهجة خلاصه وتقدست به لذا ظهر واقفاً يقيسها!

« رأيت خيام كوشان تحت بلية ، رجفت شقق أرض مديان » ع ٧ .

إسم خيام كوشان لم يذكر في العهد القديم إلا في هذه العبارة، يحتمل أن يكون إسماً قديماً لمديان قد هُجر(٣٤). هكذا إذا كانت رؤية الله لحبقوق تتجلى، والرب في عينيه قادم من جبل سيناء، فإن كل شيء مقاوم له ينهار قدامه.

لعل خيام كوشان ظهرت كمن تحت بلية وستائر مديان مرتجفة عندما أسلم الله أرض كنعان لشعبه، فارتجفت كل الأمم المحيطة.

يظن البعض أن خيام كوشان صارت تحت بلية عندما أسلم الرب كوشان بيد القاضي عثنيئيل بن قناز بعد أن عبده إسرائيل ثماني سنين (قض ٣: ٨- ١١)، فتجلت قوة الله في قاضيه المرسل لخلاص شعبه وأذل من استعبد شعبه. أما ارتجاف ستائر مديان فحدث عندما رأى صاحب جدعون حلماً «وإذا رغيف خبز شعير يتدحرج في محلة المديانيين وجاء إلى الخيمة وضربها فسقطت وقلبها إلى فوق فسقطت الخيمة» (قض ٧: ١٣)، وكان ذلك إشارة إلى سيف جدعون بن يوآش الذي قتل المديانيين.

في اختصار يسبح حبقوق الرب من أجل أعماله إذ يهب أولاده الغلبة والنصرة، بل والسلطان فترتجف أمامهم الشياطين وتصير تحت بلية!

« هل على الأنهار حمى غضبك ؟! هل على الأنهار غضبك ، أو على البحر سخطك ، حتى أنك ركبت خيلك ، مركباتك مركبات الخلاص ؟! » ع ٨ .

إن كانت المياه الكثيرة تشير إلى الشعوب (رؤ ١٧ : ١٥) فإن شعب الله يشبه بالأنهار حيث المياه العذبة والأمم الوثنية بالبحار المالحة. الله إذ يؤدب شعبه يحمي غضبه على الأنهار بسبب الظلم الذي وُجد في وسطه، وإذ يعاقب الأمم

بسخطه بسبب ما ارتكبته من شرور ضد شعبه يحمى غضبه على البحار.

لقد حمى غضبه على الأنهار والبحار عندما اعترضا طريق شعبه فى عبورهم من أرض مصر إلى أرض الموعد، فشق بحر سوف ونهر الأردن، مجتازاً بشعبه كما بمركبات خلاص، وكأنه بقائد الموكب الخلاصى الذى يعبر به من عبودية إبليس إلى ملكوته السماوى، أما المؤمنون فهم الفرس التى تحمل الله قائدها فى داخلها. فى هذا يقول **القديس جيروم**: «يقال هذا عن الله، إن كنا نحن فرس الله التى بركبها(٣٥)». ويقول **الأب ثيوفان الناسك**: «إنه يحارب عنك بنفسه، ويدفع أعداءك ليديك متى شاء «كيفما شاء، كما هو مكتوب: لأن الرب إلهك سائر فى وسط محلتك لكى ينقذك ويدفع أعداءك أمامك. تث ٢٣: ٤(٣٦)».

« عريت قوسك تعرية، سباعيات سهام كلماتك، سلاه » ع ٩.

ما هو القوس الذى تعرى ليضرب كالسهام السباعية، إلا التجسد الإلهى خلاله تمتعنا بكلمة الله كسهم يحطم الشر الذى تملك فى داخلنا؟! ليحل كلمة الله فينا كسهم حقيق يجرح قلوبنا بالحب فنقول «إنى مريضة حباً» (نش ٢: ٥)، ينزع عنها كل فساد خبيث أقامه العدو الشرير فيها.

كلمات الرب « سباعيات »، تدخل إلى القلب فتجعله كاملاً، إذ يشير رقم ٧ إلى الكمال.

« شققت الأرض أنهاراً » ع ٩.

إذ نقبل الكلمة المتجسد فينا كسهم إلهى يجرح قلوبنا بالحب وينزع عنها فسادها، فإنه بدوره إذ يراها قد صارت أرضاً لا سماء تحب الزمنيات لا الأبديات يشققها خلال شركة الصليب والألم، ويحول الأرض إلى أنهار مياه حية، وكما قال المخلص «من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حىّ» (يو ٧: ٣٨).

لا نخف لأننا أرض قفراء، فإن الرب بصليبه يفجر فينا ينابيع روحه القدوس كأنهار ماء حىّ، تروى أرضنا وتفيض بالشهادة له فى كل موضع!

يرى **القديس جيروم** أن السيد المسيح هو النهر الأصلى الذى يصب فى أرضنا أنهاراً هى ثمرة عمله فينا، هذه الأنهار تشهد للنهر الحقيق مسبحه له لا بالكلام

فحسب وإنما أيضاً بالعمل، وكما يقول المرتل «الأنهار لتصفق بالأيادى» (مز ٩٨: ٨). «ليت الأنهار التى ترتوى من المصدر يسوع تصفق بالأيادى، فإن عمل القديسين هو التسبيح لله. المسيح لا يُسبح بالكلام بل بالعمل، إنه يطلب الفعل لا الصوت (٣٧)».

«أبصرتك ففزعت الجبال، سيل المياه طما، أعطت اللجة صوتها، رفعت يديها إلى العلاء» ع ١٠.

إن كان كلمة الله الحىّ يشقق بصليبه أرضنا فيجعلها أنهار مياه تسبح وترتل له بالعمل الروحى الحق، فى سكناه داخلنا تراه جبال خطايانا الثقيلة فتفزع هاربة من أمام وجهه. ما كنا نحسبه جبالاً راسخة لا يقدر أحد أن يحركها تصير بالصليب سهلاً. وكما قيل فى زكريا «من أنت أيها الجبل العظيم؟! أمام زربابل تصير سهلاً، فيخرج حجر الزاوية بين الهاتفين كرامة كرامة له» (زك ٤: ٧). وقد رأينا فى دراستنا لسفر زكريا(٣٨) كيف يزول الجبل الشرير ليظهر السيد المسيح حجر الزاوية صاحب الكرامة، المقطوع بغير يدين إذ هو ليس من زرع بشر، يصير جبلاً يملأ الأرض كلها (دا ٢: ٣٥). بهذا تتدفق نعمة الله كمياه بلا حدود لتعطى صوت تسبيح داخلى، وترفع يدى النفس الداخليتين نحو العلا تمارسا العمل السماوى.

«الشمس والقمر وقف فى بروجها، لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك بغضب خطرت فى الأرض، بسخط دست الأمم.
«خرجت لخلاص شعبك لخلاص مسيحك» ع ١١ - ١٣.

إذ يسبح النبى الله على أعماله عبر السنين يعود بذاكرته إلى أيام يشوع حين صلى لكى تقف الشمس والقمر فى بروجها فى السماء حتى تكمل نصرة إسرائيل على أعدائه (يش ١٠: ١٢، ١٣)، فلا يأتى ليل سريع فيه يهرب العدو قبل إتمام الهزيمة. فى النور غلب يشوع العدو، وهكذا إذ يشرق الرب فى القلب بكونه شمس البر وتتحول أرض المعركة إلى قمر بكونها الكنيسة المقدسة المقاومة لإبليس، يبدد النور ظلمة العدو، ويبقى الرب مشرقاً حتى تتحقق النصرة تماماً.

ولعله يقصد أيضاً أن عمل اللهّ الخلاصى تخضع له كل الطبيعة، حتى الشمس

والقمر تعمل معاً حسب تدبيره لتحقيق مملكته النورانية وإبادة مملكة الظلمة .

ويمكننا القول بأن « الشمس والقمر وقفا فى بروجهما » يوم الصليب ، حين اختفيا أمام بهاء مجد شمس البر فى خجل مما تفعله البشرية به . وقفا محتجبين ، فيدهشان أيضاً كيف يحطم السيد المسيح إبليس وكل جنوده ليحرر الإنسان منهم كما من أمم وثنية ، قائلين : « يسخط دست الأمم ، خرجت لخلاص شعبك ، لخلاص مسيحك » .

٣ - بهجة الخلاص :

« خرجت لخلاص شعبك لخلاص مسيحك .
سحقت رأس بيت الشرير معرياً الأساس حتى العنق . سلاه .
ثقبت بسهامه رأس قبائله » ع ١٣ ، ١٤ .

يختم النبى تسبحته بالكشف عن خلاص الله للإنسان بتحطيم سلطان إبليس علينا وبعث روح الفرح فينا . فبالصليب سحق رأس بيت إبليس الشرير الذى تعرى حتى الأساس وظهرت خداعاته الخفية ، كاشفاً إياه من الأساس حتى العنق . فإن كان العدو قد صوب سهامه ضدنا إنما لكى ترتد عليه وتحطمه تماماً فلا يكون له سلطان علينا ولا موضع فينا .

كثيراً ما حدثنا الآباء عن تحطيم سلطان إبليس لكى يبعثوا فينا الرجاء للعمل الروحى بلا خوف ولا تذبذب ، فمن كلماتهم :

+ على الصليب أخزى المسيح الشيطان وكل جيشه . تأكد أن المسيح صُلب بجسده على الصليب فإذا به يصلب الشيطان هناك ... كان الصليب علامة نصرة ولواء غلبة . كانت غايته عند الإرتفاع على الصليب أن يرفعنا عن الأرض ، وكما أظن صليب المخلص هو السلم الذى رآه يعقوب .

القديس جيروم (٣٩)

+ إننا نتعلم فن الحرب لنستطيع الصراع لا ضد الناس بل ضد الأرواح . بلى ، فإنه إذ يكون لنا فكر (حق) لا نصارع قط ، فإننا نصارع لأننا اخترنا هذا مع أننا نلنا سلطاناً من ذاك الذى يسكن فينا ، الذى قال « ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا

الحيات والعقارب وكل قوة العدو» (لو ١٠: ١٩). أعطى لكم كل السلطان أن تصارعوا أو لا تصارعوا إن أردتم. فنحن نصارع لأننا متراخون، أما الرسول بولس فلم يصارع بل يقول: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟! أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف؟!» (رو ٨: ٣٥). إسمع أيضاً كلماته: «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً» (رو ١٦: ٢٠). لقد جعل سلطاناً عندما قال: «أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها» (أع ١٦: ١٨). هذه ليست لغة من يصارع، لأن من يصارع لم يغلب بعد، ومن يغلب فلا يصارع بعد.

+ إن أردنا نحن يجعله الله مدوساً تحت أقدامنا، ولكن أى ازدراء ويؤس أن نراه يدوس على رؤوسنا ذاك الذى أُعطى لنا أن نطأه تحت أقدامنا؟! كيف يحدث هذا؟! إنه بسببنا نحن. فإن أردنا يكون عظيماً، وإن أردنا يكون قليل الحيلة. إن كنا حذرين ووقفنا بجانب ملكنا ينسحب، ويكون فى حربه ضدنا لا يزيد عن طفل صغير.

القديس يوحنا الذهبى الفم (٤١)

هذا هو سر بهجة نفس النبى، إذ رأى عمل الله الخلاصى بتحطيم سلطان إبليس لحساب مملكة النور. حقاً لقد ارتعدت أحشاؤه إذ رأى الكلدانيين يفسدون كل ثمر، لكن وراء هذا التأديب يوجد خير أعظم، حين يحول الله التأديب إلى بهجة خلاص.

يقول النبى: **«سمعت فارتعدت أحشائى، من الصوت رجفت شفتاى، دخل النخر عظامى، وارتعدت فى مكانى لأستريح فى يوم الضيق عند صعود الشعب الذى يزحمنا» ع ١٦.** لقد رأى الكلدانيين كشعب يزحمهم أو كعدو يود أن يقضى عليهم، فارتعدت أحشاؤه ورجفت شفتاه ودخل النخر فى عظامه... لقد أفسد العدو كل ثمر روحى فلم يزهر التين ولا أثمرت الكروم. وجفت أشجار الزيتون. هذه هى صورة الإنسان الساقط تحت إبليس فلا ينعم بوحدة الروح (التين) (٤٢)، ولا عمل الصليب (الكروم التى تعصر)، ولا بالسلام الداخلى (الزيتون)، أى يفقد حياته الداخلية بحرمانه من عمل الروح القدس وارتباطه بصليب ربنا يسوع. **ولا يقف الأمر عند فساد الأعماق الداخلية وإنما حتى الجسد**

بفقد قدسيته فيصير كحيوانات ميتة. إذ يقول «**والحقول لا تصنع طعاماً، ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر فى المزاود**» ع ١٧. لا يجد الجسد طعاماً روحياً فيجوع ويمرض بل ويموت روحياً ويصير الإنسان كحظيرة بلا غنم ومزود بلا بقر! هذا ما يبغيه العدو، فقدان لقدسية النفس والجسد أيضاً.

لكن الله لا يترك الإنسان هكذا بل يرد له خلاصه، واهباً إياه بهجة الخلاص، مقدماً ذاته قوة له، ومشدداً قدميه لتنطلقا نحو السماء مسرعة كالأيائل، فيتمشى الإنسان على المرتفعات المقدسة ولا ينزل إلى وحل العالم وترابه، إذ يقول:

« فإنى أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصى،
الرب السيد قوتى،
ويجعل قدمى كالأيائل
ويمشينى على مرتفعاتى،
لرئيس المغنين على آلاتى ذوات الأوتار » ع ١٨، ١٩.

هكذا بدأ السفر بالألم والضيق مع المرارة بسبب المتاعب الداخلية والخارجية، لكن إذ دخل النبى فى حوار مفتوح مع الله ووقف كما على مرصد يترقب وعلى حصن منتصباً ليرى أعمال الله إنتهى السفر بالبهجة والفرح، مدركاً أن الله نفسه هو قوة أولاده، يشدد أرجلهم ويرفعهم إلى العلو لينطلق بهم بروحه القدوس فوق كل الأحداث.

□ □ □

الملاحظات

مقـدمـة :

1 - J.H. Raven: Old Testament Introduction, P 234
2 - New Westminster Dict. of the Bible, P 396.
3 - Ibid. 4 - Jerome Biblical Comm. P296.
5 - J.H. Raven, P235. 6 - New Westminster Dict. P 155.
7 - Herod. 1:181,183. 8 - Jerome Bibl. Comm. P 296.
9 - Ibid.

الأصحاح الأول :

10 - On Ps. 37.

١١ ـ هل للشيطان سلطان عليك ؟! المقال الأول .

12 - On Ps. hom 3.

١٤ ـ المحاربات الروحية جـ ١ ، فصل ١٥ .

15 - Ad. hom. 4,5.

١٦ ـ المحاربات الروحية ١ : ١٥ .

17 - In Eph. hom 22. 18 - Ibid.

١٩ ـ المؤلف : القديس يوحنا الذهبي الفم ، ١٩٨٠ ، ص ٣٣٠ .

20 - Ep. 22:4.

الأصحاح الثانى :

21 - Ep. 53:8.
22 - Jerome Biblical Comm, P297.
23 - In Philip. hom 7.
24 - Jerome Bibl. Comm, P 297.

25 - Ser. on N.T. 93:4.
26 - Ser. on Mount 1:5.
27 - On Ps. hom 2.
28 - In Tim. hom 13.

الأصحاح الثالث :

29 - On Ps. Hom 10.
30 - On Ps. hom 25.
31 - Ibid 33.

٣٢ ـ تفسير سفر زكريا .

33 - On Ps. hom 14.
34 - Jerome Bib. Comm. P 298.
35 - Pl. 25:1317.

٣٦ ـ المحاربات الروحية ١ : ١٥ .

37 - On Ps. hom 25.

٣٨ ـ راجع تفسير زكريا ٤ : ٧ .

39 - On Ps. hom 21.
40 - Ibid 40.
41 - In Eph. hom 22, In Philip. hom 6.

٤٢ ـ راجع تفسير « هوشع » المقدمة .

صدر في هذه السلسلة :

١- سفر الخروج .
٢- سفر العدد .
٣- سفر يشوع .
٤- سفر راعوث .
٥- سفر صموئيل الأول .
٦- سفر هوشع .
٧- سفر يونان .
٨- سفر ميخا .
٩- سفر ملاخي .
١٠- سفر [illegible] .
١١- [illegible] ([illegible]) .
١٢- رسالة بولس الرسول الأولى إلى تسالونيكي .
١٣- رسالة بولس الرسول الثانية إلى تسالونيكي .
١٤- رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس .
١٥- رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس .
١٦- رسالة بولس الرسول إلى تيطس .
١٧- الرسالة إلى العبرانيين .
١٨- رسالة يعقوب الرسول .
١٩- رسالة بطرس الرسول الأولى .
٢٠- رسالة بطرس الرسول الثانية .
٢١- رسائل يوحنا الرسول .
٢٢- رسالة يهوذا .
٢٣- رؤيا يوحنا اللاهوتي .

ثمن ١٨ قرشاً
« أقل من التكلفة »